بُحَيْرَةُ النَّار

كل ما يفعله الإنسان سرّاً في ظلمة اللَّيل يظهره الإنسان علناً في نور النَّهار. الكلمات الّتي تهمسها شفاهنا في السَّكينة تصير على غير معرفة منا حديثاً عموميّاً، والأعمال الّتي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غداً وتنتصب في منعطفات الشَّوارع.

كذا أعلنت أشباح الدُّجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى أحياء المدينة حتى بلغت مسمعي.

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك اللَّيلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخابره بأمور الأرامل والأيتام، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور بك غالب.

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن لهُ وارث سوى ابنته سلمى، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه، لا لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنيَّةٌ موسرةٌ تكفل بأموالها الطَّائلة مستقبل منصور بك وتساعده بأملاكها

الواسعة على إيجاد مقامٍ رفيعٍ بين الخاصَّة والأشراف.

إن رؤساء الدِّين في الشَّرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسُّؤدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا أنسباءهم في مقدمة الشَّعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله. إن مجد الأمير ينتقل بالإرث إلى ابنه البكر بعد موته، أما مجد الرَّئيس الدِّيني فينتقل بالعدوى إلى الأخوة وأبناء الأخوة في حياته. وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والإمام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر الّتي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بأفواه عديدةٍ.

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبه ذلك الشَّيخ بغير السُّكوت العميق والدُّموع السَّخينة. وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك؟ أي رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالغصات عندما يفصله ناموس[١] الطَّبيعة عن الابنة الّتي لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة؟ إن كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع[٢] فرحهما بزواج الابن، لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً أمَّا ذاك فيَسْلُبُها عضواً قديماً عزيزاً ـ أجاب الشَّيخ طلب المطران مضطراً وانحنى

(١) ناموس: قانون.

(٢) يضارع: يساوي ويشارك.

أمام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع النَّاس يتحدثون عنه فعرف خشونته وطمعهُ وانحطاط أخلاقه، ولكن أي مسيحي يقدر أن يقاوم أسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين، أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشَّرق ويظل كريماً بين النَّاس؟ أتعاند العين سهماً ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفاً ولا تقطع؟ وهب أن ذلك الشَّيخ كان قادراً على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته في مأمن من الظُّنون والتآويل، وهل يظل اسمها نقياً من أوساخ الشِّفاه والألسنة؟ أو ليست جميع العناقيد العالية حامضة في شرع بنات آوى؟

هكذا قبض القدر على سلمى كرامه وقادها عبدة ذليلة في موكب النِّساء الشَّرقيات التاعسات، وهكذا سقطت تلك الرُّوح النَّبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأول مرة على أجنحة الحب البيضاء في فضاء تملأه أشعة القمر وتعطره رائحة الأزاهر.

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين تلك الخزائن الواسعة الّتي يملأها نشاط الوالد وحرص الأم تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة. ذلك الإلٰهُ العظيم الّذي يعبده النَّاس بشكل الدِّينار ينقلب شيطاناً مخيفاً يعذب النُّفوس ويميت القلب. وسلمى كرامه

هي كالكثيرات من بنات جنسها اللّواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد وأماني العريس. فلو لم يكن فارس كرامه رجلاً غنياً لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشَّمس.

مرّ أسبوع وحب سلمى يجالسني في المساء منشداً على مسمعي أغاني السَّعادة وينبهني عند الفجر ليريني معاني الحياة وأسرار الكيان. حبٌّ علويٌّ لا يعرف الحسد لأنه غني، ولا يوجع الجسد لأنه في داخل الرُّوح. ميل قوي يغمر النَّفس بالقناعة. مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتفاء. عاطفة تولد الشَّوق ولكنها لا تثيره. فتون جعلني أرى الأرض نعيماً والعمر حلماً جميلاً. فكنت أسير صباحاً في الحقول وأرى في يقظة الطَّبيعة رمز الخلود، وأجلس على شاطىء البحر وأسمع من أمواجه أغاني الأبدية، وأمشي في شوارع المدينة وأجد في طلعات العابرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة العمران.

تلك أيام مضت كالأشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق لي منها سوى الذكرى الأليمة، فالعين الّتي كنت أرى بها جمال الرَّبيع ويقظة الحقول لم تعد تحدق إلى غير غضب العواصف ويأس الشِّتاء. والأذن الّتي كنت أسمع بها أغنية الأمواج لم تعد تصغي لغير أنة الأعماق وعويل الهاوية. والنَّفس الّتي كانت تقف متهيِّبة أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقر وتعاسة

السَّاقطين. فما أحلى أيام الحب وما أعذب أحلامها وما أمرَّ ليالي الحزن وما أكثر مخاوفها!

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي سرت مساء إلى منزل سلمى كرامه، ذلك الهيكل الّذي أقامه الجمال وقدّسه الحب لتسجد فيه النَّفس مصلية ويركع القلب خاشعاً، ولما بلغته ودخلت إلى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء إلى عالم سحري خال من العراك والجهاد، ومثل متصوف جذبته السَّماء إلى مسارح الرُّؤيا وجدتني سائراً بينَ تلك الأشجار المحتبكة والزهور المتعانقة، حتى إذا ما اقتربت من باب الدَّار التفت وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة الياسمين حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك اللَّيلة الّتي اختارتها الآلهة من بين اللَّيالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي، فدنوت منها صامتاً فلم تتحرك ولم تتكلم كأنها علمت بقدومي قبل قدومي ولما جلست بجانبها حدَّقت إلى عيني دقيقة وتنهدت تنهدة طويلة عميقة ثمَّ عادت فنظرت إلى الشَّفق البعيد حيث تعبث أوائل اللَّيل بأواخر النَّهار. وبعد هنيهة مملوءة بتلك السَّكينة السِّحرية الّتي تضم نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير المنظورة، حولت سلمى وجهها نحوي وأخذت يدي بيد مرتعشة باردة وبصوت يشابه تأوه جائع لا يقوى على الكلام قالت:

أنظر إلى وجهي يا صديقي، أنظر إلى وجهي جيداً وتأمله طويلاً واقرأ فيه كل ما تريد أن تفهمه مني بالكلام. . . أنظر إلى وجهي يا حبيبي. . . أنظر جيداً يا أخي.

فنظرت إلى وجهها، نظرت طويلاً، فرأيت تلك الأجفان الّتي كانت منذ أيام قليلة تبتسم كالشِّفاه وتتحرك كأجنحة الشَّحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجع والألم رأيت تلك البشرة الّتي كانت بالأمس مثل ثنايا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشَّمس، قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط[1]. رأيت الشَّفتين اللّتين كانتا كزهرة أقاح تسيل عليها الحلاوة قد يبستا وصارتا كَوَرْدَتَين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن. رأيت العنق الّذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى إلى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول في تلافيف الرَّأس.

رأيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمى، رأيتها جميعها ولكنها لم تكن في نظري إلّا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبة. إن الملامح الّتي تبيح أسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالاً وملاحة مهما كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة. أما الوجوه الّتي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النَّفس وخفاياها فلا تكون جميلة مهما

(١) القنوط: الاستسلام إلى الهزيمة.

كانت متناسقة الخطوط متناسبة الأعضاء. إن الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف[1] بلورها عن لون الخمر. فسلمى كرامه كانت في عشية ذلك النَّهار مثل كأسٍ طافحةٍ من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النَّفس. كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشَّرقية الّتي لا تغادر منزل والدها المحبوب إلَّا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن... ولا تترك ذراعي أمها الرَّؤوف إلَّا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية.

وبقيت محدقاً إلى وجه سلمى مصغياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً مفكراً شاعراً متألماً معها ولها، حتى أحسست أن الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين إلى أعماقي، ولا أشعر بغير يد باردة مرتعشة تضم يدي. ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء: تعال نتحدث الآن يا صديقي. تعال نحاول تصوير المستقبل قبل أن يحمل علينا بمخاوفه وأهواله. لقد ذهب والدي إلى منزل الرَّجل الّذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر. قد ذهب الرَّجل الّذي اختارته السَّماء سبباً لوجودي ليلتقي الرَّجل الّذي انتقته الأرض سيداً على أيامي الآتية. ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشَّيخ الّذي رافق شبيبتي بالشَّاب الّذي سيرافق

(١) يشف: يرقّ ويكشف.

ما بقي لي من السِّنين، وفي هذه اللَّيلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الّذي سيكون قريباً مهما جعلاه بعيداً، فما أغرب هذه السَّاعة وما أشد تأثيرها! في مثل هذه اللَّيلة من الأسبوع الغابر. وفي ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحب روحي لأول مرة، بينما كان القدر يخط أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب. وفي هذه السَّاعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا إكليل زواجي، أراك جالساً بجانبي وأشعر بنفسك متموجة حولي كطائر ظامىء يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماء يخفره[1] ثعبان جائع مخيف، فما أعظم هذه اللَّيلة وما أعمق أسرارها!

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضاً على عُنُقِ حبِّنا ليميته في طفوليَّته: سيظلُّ هذا الطَّائر حائماً مرفرفاً فوق الينبوع حتى يضنيه العطش فيرديه أو يقبض عليه الثُّعبان المخيف فيمزقه ويلتهمه.

فقالت متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضِّيَّة: لا، لا يا صديقي، فليبق هذا الطَّائر حياً، ليبق هذا البلبل مغرداً حتى المساء، حتى ينتهي الرَّبيع حتى ينتهي العالم، حتى تنتهي الدُّهور. لا تخرسه لأن صوته يحييني، ولا توقف جناحيه لأن حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي.

---

(١) يخفره: يحميه ويحرسه.

فهمست متنهداً: الظَّمأ يقتله يا سلمى والخوف يميته.

فأجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفتيها المرتعشتين: إن ظمأ الرُّوح أعظم من ارتواء المادة، وخوف النَّفس أحب من طمأنينة الجسد... ولكن اسمع يا حبيبي، اسمعني جيداً، أنا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئاً. أنا مثل عمياء تتلمس بيدها الجدران مخافة السُّقوط. أنا جارية أنزلني مال والدي إلى ساحة النَّخاسين فابتاعني رجل من بين الرِّجال. أنا لا أحب هذا الرَّجل لأنني أجهله، وأنت تعلم أن المحبة والجهالة لا يلتقيان، ولكنني سوف أتعلم محبته. سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً. سوف أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرَّجل القوي. أما أنت فلم تزل في ربيع العمر، أمامك الحياة طريقٌ واسعة مفروشة الأزهار والرَّياحين. سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلاً متقداً. سوف تفكِّر بحرية وبحرية تتكلم وتفعل، سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل. سوف تعيش سيداً، لأن فاقة[١] والدك لا تجعلك عبداً، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النَّخاسين[٢] حيث تُباع البنات وتُشرى. سوف تقترِنُ بالصَّبية الّتي تختارها نفسك من بين الصَّبايا فتسكنها

(١) فاقة: فقر وحاجة.

(٢) النخّاسين: باعة الجواري والقيان والعبيد.

صدرك قبل أن تسكنها منزلك، وتشاركها بأفكارك قبل أن تساهمها[١] الأيام واللَّيالي.

وسكتت دقيقة كيما تسترجع أنفاسها، ثمَّ زادت بصوت تتابعه الغصات: ولكن أهنا تفرقنا سبل الحياة لتذهب بك إلى أمجاد الرَّجل وتسير بي إلى واجبات المرأة؟ أهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة؟ أهكذا تبتلع اللُّجَّة نغمة الشُّحرور وتنثر الرِّياح أوراق الوردة وتسحق الأقدام كأس الخمر؟ أباطلاً أوقفتنا تلك اللَّيلة أمام وجه القمر وباطلاً ضمنا الرُّوح في ظلال هذه الياسمينة؟ هل تسرعنا بالصُّعود نحو الكواكب فكلت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا، أم هيّجت أنفاسنا نسمات اللَّيل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادي؟ لم نخالف وصية ولم نذق ثمراً فكيف نَخرج من هذه الجنة؟ لم نتآمر ولم نتمرد فلماذا نهبط إلى الجحيم! لا لا وألف لا. إن الدَّقائق الّتي جمعتنا هي أعظم من الأجيال، والشُّعاع الّذي أنار نفسينا هو أقوى من الظَّلام، فإن فرقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب فالأمواج تجمعنا على ذلك الشَّاطىء الهادىء، وإن قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا.

---

(١) تساهمها: تشاركها.

إنَّ قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحوَّلُ مع الفصول. قلب المرأة ينازع طويلاً ولكنَّه لا يموت. قلب المرأة يشابه البَرِيَّة الّتي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدِّماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم، ولكنها تبقى هادئةً ساكنة مطمئنة ويظل فيها الرَّبيع ربيعاً والخريف خريفاً إلى نهاية الدُّهور... والآن قضي الأمر فماذا نفعل؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفترق ومتى نلتقي؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً أتى به المساء وأبعده الصَّباح؟ أتحسب هذه العاطفة النَّفسية حلماً أبانَهُ الكرى ثمَّ أخفته اليقظة؟ أتحسب هذا الأسبوع ساعة سكر ما لبثت أن قضت بالصَّحو والانتباه؟.. ارفع رأسك لأرى عينيك يا حبيبي. افتح شفتيك لأسمع صوتك. تكلم، اخبرني، حدثني، هل تذكرني بعد أن تُغرق العاصفة سفينتي أيامنا؟ هل تسمع حفيف أجنحتي في سكينة اللَّيل؟ هل تشعر بأنفاسي متموجة على وجهك وعنقك؟ هل تصغي لتنهداتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالغصات؟ وهل ترى خيالي قادماً مع خيالات الظَّلام مضمحلاً مع ضباب الصَّباح؟ قل لي يا حبيبي، قل لي ماذا تكون لي بعد أن كنت نوراً لعينيَّ ونغمة لأذني وجناحاً لروحي، ماذا تكون؟

فأجبتها وحبات قلبي تذوب في عيني: سأكون لك يا سلمى مثلما تريدينني أن أكون.

فقالت: أريدك أن تحبني. أريدك أن تحبني إلى نهاية أيامي. أريدك أن تحبني مثلما يحب الشَّاعر أفكاره المحزنة. أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادىء رأى فيه خيال وجهه قبل أن يشرب من مائه. وأريدك أن تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في أحشائها قبل أن يرى النُّور. وأريدك أن تفكر بي مثلما يفكر الملك الرَّؤوف بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه. أريدك أن تكون لي أخاً وصديقاً ورفيقاً. أريدك أن تزور والدي في وحدته وتعزيه في انفراده، لأنني عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه.

فأجبتها: سأفعل كل ذلك يا سلمى. سوف أجعل روحي غلافاً لروحك، وقلبي بيتاً لجمالك، وصدري قبراً لأحزانك. سوف أحبك يا سلمى محبَّة الحقول للربيع. سوف أحيا بك حياة الأزاهر بحرارة الشَّمس. سوف أترنم باسمك مثلما يترنَّم الوادي بصدى رنين الأجراس المتمايلة فوق كنائس القرى. سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي الشَّواطىء لحكاية الأمواج... سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش وطنه المحبوب، والفقير الجائع مائدة الطَّعام الشَّهية. والملك المخلوع أيام عزه ومجده، والأسير الكئيب ساعات الحرية والطَّمأنينة. سوف أفكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمار السَّنابل وغلة البيادر،

والرَّاعي الصَّالح بالمروج الخضراء والمناهل[١] العذبة.

كنت أتكلَّم وسلمى تنظر إلى أعماق اللَّيل وتتأوه بين الآونة والأخرى، ونبضات قلبها تتسارع وتتماهل كأنها أمواج بحر بين صعود وهبوط. ثمَّ قالت: غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة حلماً، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمآن من جداول الأحلام؟

فأجبتها قائلاً: غداً يسير بك القدر إلى أحضان العائلة المملوءة بالرَّاحة والهدوء، ويسير بي إلى ساحة العالم حيث الجهاد والقتال. أنت إلى منزل رجل يسعد بجمالك وطهر نفسك. وأنا إلى مكامن أيام تعذبني بأحزانها وتخيفني بأشباحها. أنت إلى الحياة وأنا إلى النَّزع. أنتِ إلى الأنس والإلفة وأنا إلى الوحشة والانفراد. ولكنني سأرفع في وادي ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده. سأتخذ الحب سميراً وأسمعه منشداً وأشربه خمراً وألبسه ثوباً. عند الفجر سينبهني الحب من رقادي ويسير أمامي إلى البرية البعيدة. وعند الظهيرة سيقودني إلى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشَّمس. وفي المساء سيوقفني أمام المغرب ويسمعني نغمة وداع الطَّبيعة للنور ويريني أشباح السَّكينة سابحة في الفضاء. وفي اللَّيل سيعانقني فأنام

(١) المناهل: موارد الماء حيث يستقى.

حالماً بالعوامل العلوية حيث تقطن أرواح العشَّاق والشُّعراء. وفي الرَّبيع سأمشي والحب جنباً لجنب، مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار أقدام الحياة المخططة بالبنفسج والأقحوان، شاربين بقايا الأمطار بكؤوس النَّرجس والزنبق. وفي الصَّيف سأتكىء والحب ساندين رأسينا إلى أغمار القش مفترشين الأعشاب ملتحفين السَّماء ساهرين مع القمر والنُّجوم. وفي الخريف سأذهب والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين إلى الأشجار وهي تخلع أثوابها المذهبة متأملين بأسراب الطُّيور الرَّاحلة إلى السَّاحل. وفي الشِّتاء سأجلس والحب بقرب الموقد تاليين حكايات الأجيال مرددين أخبار الأمم والشُّعوب. وفي أيام الشَّبيبة سيكون لي الحب مهذباً، وفي الكهولة عضداً، وفي الشَّيخوخة مؤنساً. سيظل الحب معي يا سلمى إلى نهاية العمر، إلى أن يجيء الموت، إلى أن تجمعني بك قبضة اللَّه.

كانت الألفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسي كأنها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثمَّ تتبدد وتضمحل في زوايا تلك الحديقة، وكانت سلمى مصغية والدُّموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاه تجيبني بالدُّموع على الكلام.

إن الّذين لم يهبهم الحب أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السِّحري الّذي

طافت فيه روحي وروح سلمى في تلك السَّاعة المحزنة بأفراحها المفرحة بأوجاعها. إن الّذين لم يتخذهم الحب أتباعاً لا يسمعون الحب متكلماً، فهذه الحكاية لم تكتب لهم؛ فهم وإن فهموا معاني هذه الصَّفحات الضَّئيلة لا يمكنهم أن يروا ما يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا تلبس الحبر ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً. لكن أي بشريّ لم يرشف من خمرة الحب في إحدى كاساته؟ أية نفس لم تقف متهيبة في ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالأسرار والأحلام والعواطف؟ أي زهرة لم يسكب الصَّباح قطرة من النَّدى بين أوراقها؟ وأي ساقية تضل طريقها ولا تذهب إلى البحر؟

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السَّماء المزينة بالكواكب ومدت يديها إلى الأمام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها وظهر على وجهها المصفر كل ما في نفس المرأة المظلومة من الشَّكوى والقنوط والألم، ثمَّ صرخت قائلة: ماذا فعلت المرأة يا رب فاستحقت غضبك؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها سخطك إلى آخر الدُّهور؟ هل اقترفت جرماً لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية؟ أنت قوي يا رب وهي ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع؟ أنت عظيم وهي تدب حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك؟ أنت عاصفة شديدة وهي كالغبار أمام وجهك فلماذا تذريها على الثلوج؟

أنت جبار وهي بائسة فلماذا تحاربها؟ أنت بصير عليم وهي تائهة عمياء فلماذا تهلكها؟ أنت توجدها بالمحبة فكيف بالمحبة تفنيها؟ بيمينك ترفعها إليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية وهي جاهلة لا تدري أنَّى ترفعها وكيف تدفعها؟ في فمها تنفخ نسمة الحياة وفي قلبها تزرع بذور الموت. على سبل السَّعادة تسيرها راجلة ثمَّ تبعث الشَّقاء فارساً ليصطادها. في حنجرتها تبث نغمة الفرح ثمَّ تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة بأصابعك الخفية تمنطق باللَّذة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسُمُ هالات الأوجاع حول ملذاتها. في مضجعها تخفي الرَّاحة والسَّلامة وبجانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب. بإرادتك تحيي ميولها ومن ميولها تتولد عيوبها وزلاتها. بمشيئتك تريها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكة. بشريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضائك[1] تجعل جسدها بعلاً للضَّعْف والهوان. أنت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس الحياة. أنت تطهرها بدموعها وبدموعها تذيبها. أنت تملأ جوفها من خبز الرَّجل ثمَّ تملأ حفنة الرَّجل من حبات صدرها. أنت أنت يا رب قد فتحت عيني بالمحبة وبالمحبة أعميتني. أنت قبّلتني بشفتيك وبيدك القوية صفعتني. أنت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول

(١) بقضائك: بحكمك وقدرك.

هذه الوردة أنبتّ الأشواك والحسك. أنت أوثقت حاضري بروح فتى أحبه وبجسد رجل لا أعرفه. قيدت أيامي فساعدني لأكون قوية في هذا الصِّراع المميت واسعفني لأبقى أمينة وطاهرة حتى الموت... لتكن مشيئتك يا رب. ليكن اسمك مباركاً إلى النِّهاية.

وسكتت سلمى وظلت ملامحها تتكلم، ثمَّ حنت رأسها وأرخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها فبانت لناظري كغصن قصفته العاصفة وألقته إلى الحضيض ليجفَّ ويندثر تحت أقدام الدَّهر. فأخذت يدها المثلجة بيدي الملتهبة وقبّلت أصابعها بأجفاني وشفتي، ولما حاولت تعزيتها بالكلام وجدتني أحرى منها بالتعزية والشَّفقة، فبقيت صامتاً حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدَّقائق بعواطفي، مصغياً لأنَّة قلبي في داخلي، خائفاً من نفسي على نفسي.

ولم ينبس أحدنا ببنت شفة في ما بقي من تلك اللَّيلة، لأن اللَّوعة إذا عظمت تصير خرساء، فبقينا ساكتين جامدين كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب. ولم يعد أحدنا يريد أن يسمع الآخر متكلماً، لأن خيوط قلبينا قد وهت[1] حتى صار التنهد دون الكلام يقطعها.

---

(١) وهت: ضعفت.

انتصف اللَّيل ونمت رهبة السُّكوت وطلع القمر ناقصاً من وراء صنين وبان بين النُّجوم كوجه ميت شاحب غارق في المساند السَّوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه. وظهر لبنان كشيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكله الأحزان وهجر أجفانه الرُّقاد فبات يساهر الدُّجى ويترقب الفجر كملك مخلوع جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره. إن الجبال والأشجار والأنهار تتبدل هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات والأزمنة مثلما تتغيَّر ملامحُ وَجهِ الإنسانِ بتغيُّر أفكارِهِ وعواطِفِه، فشجرةُ الحور التي تتعالى في النَّهار كعروس جميلة يلاعب النَّسيم أثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللاشيء والصَّخر الكبير الّذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في اللَّيل كفقير بائس يفترش الثرى ويلتحف الفضاء. والسَّاقية التي نراها عند الصَّباح متلمعة كذوب اللّجين ونسمعها مترنمة بأغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى. ولبنان الّذي ظهر منذ أسبوع بكل مظاهر الجلال والرَّونق عندما كان القمر بدراً والنَّفس راضية قد بان في تلك اللَّيلة كئيباً منهوكاً مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص هائم في عُرض[1] السَّماء وقلب خافق معتل في داخل الصَّدر.

(١) عُرض، بضم العين: جهة، ناحية.

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين، هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على عنقينا. هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً. ولما أخذت يد سلمى ووضعتها على شفتي متبرِّكاً دنت مني ولثمت مفرق شعري، ثمَّ عادت فارتمت على المقعد الخشبي وأطبقت أجفانها وهمست ببطء: اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة.

انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمر الضَّباب وجه البحيرة. وسرت وأخيلة الأشجار القائمة على جانبي الطَّريق تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض لتخيفني، وأشعة القمرِ الضَّعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام دقيقة تريشها[1] أرواح الجان السَّابحة بالفضاء نحو صدري، والسَّكينة العميقة تخيم عليّ كأنها أكف سوداء ثقيلة ألقتها الظلمة على جسدي.

كل ما في الوجود وكل معنى في الحياة وكل سرٍّ في النَّفس قد صار قبيحاً رهيباً هائلاً، فالنُّور المعنوي الّذي أراني جمال العالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهيبها وتستر نفسي بدخانها. والنَّغمة التي كانت

(١) تريشها: تمدها بالسّهام.

تضم إليها أصوات المخلوقات وتجعلها نشيداً علوياً قد استحالت في تلك السَّاعة إلى ضجيجٍ أروع من زمجرة الأسد وأعمق من صراخ الهاوية.

بلغت غرفتي وارتمَيْتُ على فراشي كطائر رماه الصَّيَّاد فسقط بين السِّياج والسَّهم في قلبه. وظلت عاقلتي تراوح بين يقظة مخيفة ونوم مزعج، وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلمات سلمى: أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة.

أمام عرش الموت.

إنما الزَّيجة في أيامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولَّى أمورها الفتيان وآباء الصَّبايا، الفتيان يربحون في أكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً، أما الصَّبايا المنتقلات كالسِّلع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهن، ونظير الأمتعة العتيقة يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء.

إن المدنيَّة الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلاً ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرَّجل. كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعسة. كانت بالأمس عمياء تسير في نور النَّهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة اللَّيل. كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها. فهل يجيء يومٌ يجتمع في المرأة الجمال

بالمعرفة، والتفنن بالفضيلة، وضعف الجسد بقوة النَّفس؟ أنا من القائلين أن الارتقاء الرُّوحي سُنّة في البشر، والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة فإذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللُّصوص وكهوف الذئاب. ففي هذا الجبل الشَّبيه بالغيبوبة التي تتقدم اليقظة ـ في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الأجيال الغابرة وبزور الأجيال الآتية ـ في هذا الجبل الغريب بميوله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل. وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشَّرقية العتيدة، ولكنها كالكثرين الّذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر، ونظير زهرة اختطفها تيار النَّهر قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشَّقاء.

وتزوج منصور بك غالب من سملى فسكنا معاً في منزل فخم قائم على شاطىء البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والأغنياء وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الرَّاعي بين أغنامه ومضت أيام العرس وانقضت ليالي الأفراح، ومر الشَّهر الّذي يدعوه النَّاس عسلاً تاركاً وراءه شهور الخل والعلقم مثلما تترك أمجاد الحروب جماجم القتلى في البرية البعيدة. . . إن بهرجة الأعراس الشَّرقية تصعد بنفوس

الفتيان والصَّبايا صعود النِّسر إلى ما وراء الغيوم ثمَّ تهبط بهم هبوط حجر الرَّحى إلى أعماق اليمّ[١]، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشَّاطىء لا تلبث أن تمحوها الأمواج.

وذهب الرَّبيع وتلاه الصَّيف وجاء الخريف ومحبتي لسلمى تندرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصَّبي اليتيم نحو روح أمه السَّاكنة في الأبدية، فالصَّبابة التي كانت تمتلك كليتي قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها، والولع الّذي كان يستدرُّ الدُّموع من عيني قد انقلب ولهاً يستقطر الدَّم من قلبي، وأنّة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السَّكينة أمام السَّماء مستمدة السَّعادة لسلمى والغبطة لبعلها[٢] والطّمأنينة لوالدها، ولكن باطلاً كنت أشفق وابتهل وأصلي لأن تعاسة سملى كانت علة في داخل النَّفس لا يشفيها سوى الموت. أما بعلها فكان من أولئك الرِّجال الّذين يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائماً إلى ما ليس لهم، وهكذا يظلون معذبين بمطامعهم إلى نهاية أيامهم. وباطلاً كنت أرجو الطّمأنينة لفارس كرامه لأن صهره لم يستلم يد ابنته

(١) اليمّ: البحر الطامي والعميق.
(٢) لبعلها: لزوجها.

ويحصل على أموالها الطَّائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصلاً إلى ما بقي من ثروته.

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب، وكانت أخلاقه كأخلاقه، ونفسه صورة مصغرة لنفسه، ولم يكن الفرق بينهما إلا بما يفرق الرِّياء عن الانحطاط. كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتمياً بالصَّليب الذهبي المعلق على صدره، أما ابن أخيه فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة. كان المطران يذهب إلى الكنيسة في الصَّباح ويصرف ما بقي من النَّهار منتزعاً الأموال من الأرامل واليتامى وبسطاء القلب، أما منصور بك فكان يقضي النَّهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته في تلك الأزقة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد.

كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف أيام الأسبوع مشتغلاً بسياسة البلاد، أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة. كان المطران لصاً يسير مختبئاً بستائر اللَّيل، أما منصور بك فكان محتالاً يمشي بشجاعة في نور النَّهار.

كذا تبيد الشُّعوب بين اللُّصوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين، وهكذا تستسلم الأمم الشَّرقية إلى ذوي النُّفوس المعوجة والأخلاق الفاسدة

فتتراجع إلى الوراء ثمَّ تهبط إلى الحضيض فيمر الدَّهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار.

وماذا يا ترى يجعلني الآن أشغل هذه الصَّفحات بالكلام عن أمم بائسة يائسة وأنا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بأفراحه حتى صفعه بأحزانه؟.. لماذا تراود الدُّموع أجفاني لذكر شعوب خاملة مظلومة وأنا قد وقفت دموعي على ذكرى أيام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها الموت، ولكن أليست المرأة الضَّعيفة هي رمز الأمة المظلومة؟ أليست المرأة المتوجِّعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهَّانها؟ أَوَليست العواطف الخفية التي تذهب بالصَّبية الجميلة إلى ظلمة القبر هي كالعواصف الشَّديدة التي تغمر حياة الشُّعوب بالتراب؟ إن المرأة من الأمة بمنزلة الشُّعاع من السِّراج، وهل يكون شعاع السِّراج ضئيلاً إذا لم يكن زيته شحيحاً؟

مضت أيام الخريف وعرت الرِّياح الأشجار متلاعبة بأوراقها الصَّفراء مثلما تداعب الأنواء زبد البحر، وجاء الشِّتاء باكياً منتحباً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام تتصاعد بنفسي تارة فتبلغها الكواكب، وتنخفض بقلبي طوراً فتلحده بجوف الأرض.

إن النَّفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر

النَّاس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ أو يموت.

فذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه، فتركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون المتلمعة أوراقها الرُّصاصية بقطرات المطر، متنحياً عن الطَّريق العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينة الفضاء.

بلغت منزل الشَّيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه مضنى الجسم، شاحب الوجه، أصفر اللون، قد غرقت عيناه تحت حاجبيه فبانتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيهما أشباح السُّقم والألم، فالملامح التي كانت بالأمس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت وأصبحت كصحيفة رمادية متجعدة تكتب عليها العلّة سطوراً عربية ملتبسة. واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللُّطف واللدانة قد نحلتا حتى بدت عظام أصابعهما من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة.

ولما دنوت منه سائلاً عن حاله حول وجهه المهزول نحوي وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة، وبصوت ضعيف خافت خلته آتياً من وراء الجدران قال: اذهب، اذهب يا ابني إلى تلك الغرفة وامسح دموع سلمى وسكن روعها ثمَّ عد بها إليّ لتجلس بجانب فراشي...

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمى منطرحة على

مقعد وقد غمرت رأسها بزنديها وغرقت وجهها بالمساند وأمسكت أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها. فاقتربت منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقرب إلى التنهد منه إلى الهمس، فتحركت مضطربة كنائم تراوده الأحلام المخيفة ثمَّ استوت على مقعدها ونظرت إليَّ بعينين شاخصتين جامدتين كأنَّها ترى شبحاً في عالم الرُّؤيا ولا تصدق حقيقة وجودي في ذلك المكان.

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السِّحرية إلى تلك السَّاعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها بأطراف أناملها وقالت متحسرة: أرأيت كيف تبدلت الأيام؟ أرأيت كيف أضلَّنا الدَّهر فسرنا مسرعين إلى هذه الكهوف المفزعة؟ في هذا المكان جمعنا الرَّبيع في قبضة الحبّ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشِّتاء أمام عرش الموت، فما أبهى ذلك النَّهار وما أشد ظلمة هذا اللَّيل.

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات أواخرها ثمَّ عادت فسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت أمامها فلم تشأ أن تراها. فوضعت يدي على شعرها قائلاً: تعالي يا سلمى، تعالي ننتصب كالأبراج أمام الزوبعة. هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السُّيوف بصدورنا لا بظهورنا، فإن صرعنا نموت[1]

(١) يجب أن يجزم الفعل على أنه جواب الشرط، هكذا «نمت».

كالشُّهداء وإن تغلبنا نعيش كالأبطال[١] . . . إن عذاب النَّفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب لهو أشرف من تقهقرها[٢] إلى حيث الأمن والطُّمأنينة. فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السِّراج حتى تحترق هي أسمى من الخلد الّذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم. والنَّواة التي لا تحتمل برد الشِّتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الأرض ولن تفرح بجمال نيسان. . . هلمي نسر يا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطَّريق الوعرة رافعين أعيننا نحو الشَّمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصُّخور، والأفاعي المنسابة بين الأشواك، فإن أوقفنا الخوف في منتصف الطَّريق أسمعتنا أشباح اللَّيل صراخ الاستهزاء والسُّخرية، وإن بلغنا قمة الجبل بشجاعة تترنم معنا أرواح الفضاء بأنشودة النَّصر والاستظهار. . . خففي عنك يا سلمى وجففي دموعك واخفي هذه الكآبة الظاهرة على محياك وقومي نجلس بجانب فراش والدك لأن حياته من حياتك وشفاءه بابتسامك.

فنظرت إليّ نظرة ملؤها الحنان والرَّأفة والانعطاف ثمَّ قالت: أتطلب مني الصَّبر والتجلُّد وفي عينيك معنى اليأس والقنوط؟ أيعطي الفقير الجائع خبزه للجائع الفقير؟ أوَ يصف العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدَّواء؟

---

(١) يجب أن يجزم الفعل على أنه جواب الشرط، هكذا «نعش».

(٢) تقهقرها: رجوعها إلى الوراء.

ثم وقفت وسارت أمامي منحنية الرَّأس إلى غرفة والدها. جلسنا بقرب مضجع الشَّيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلف الرَّاحة والقوَّة، وكل منهما شاعر بلوعة الآخر، عالم بضعفه، سامع غصات قلبه، فكانا مثل قوَّتين متضارعتين يفني بعضهما بعضاً في السَّكينة. والد دنف يذوب ضنى لتعاسة ابنته، وابنة محبة تذبل متوجعة بعلة والدها. نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحب والموت، وأنا بينهما أتحمل ما بي وأقاسي ما بهما. ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثمَّ قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم: شيخ يمثل بيتاً قديماً هدمه الطوفان، وصبية تحاكي زنبقة قطع عنقها حد المنجل، وفتى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج، وجميعنا مثل ألعوبة بين أصابع الدَّهر.

وتحرك الشَّيخ إذ ذاك بَين اللُّحف ومد يده النَّحيلة نحو سلمى، وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرِّقة والرَّأفة وكل ما في الصَّدر العليل من السَّقَمِ والألم قال: ضعي يدك في يدي يا سلمى.

فمدت يدها وألقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثمَّ زاد قائلاً: لقد شبعت من السِّنين يا ولدي، قد عشت طويلاً وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعت بكلِّ ما تبرزه الأيام واللَّيالي، قد لاحقت الفراش صبياً وعانقت الحب فتى وجمعت المال كهلاً، وكنت في جميع هذه الأدوار سعيداً

مغتبطاً. فقدت أمك يا سلمى قبل أن تَبْلُغي الثالثة ولكنها أبقتك لي كنزاً ثميناً، فكنت تنمين بسرعة نمو الهلال وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النُّجوم في حوض ماء هادىء، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهور الحلى الذهبية من وراء النِّقاب الرّقيق، فتعزيت بك يا ولدي لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة... والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشُّيوخ بين أجنحة الموت النَّاعمة، فتعزي يا ولدي لأنني بقيت لأراك امرأة كاملة، وافرحي لأنني سأبقى حياً بعد موتي. إن ذهابي الآن هو مثل ذهابي غداً أو بعده، لأن أيامنا مثل أوراق الخريف تتساقط وتتبدد أمام وجه الشَّمس فإن أسرعت بي السَّاعات إلى الأبديَّة فلأنَّها علمت أنَّ روحي قد اشتاقت إلى لقاء أمِّك.

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمةٍ مفعمةٍ بحلاوة الحنين والرَّجاء ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النُّور الّذي ينبثق من أجفان الأطفال، ثمَّ مد يده بين المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة يمنطقها إطارٌ من الذهب قد نعمت حدوده ملامس الأيدي ومحت نقوشه قبل الشِّفاه، ثمَّ قال دون أن يحول عينيه عن الرَّسم: اقتربي يا سلمى، اقتربي مني يا ولدي لأريك خيال أُمِّك. تعالي وانظري ظلها على صفحة من الورق.

فدنت سلمى ماسحة الدُّموع من مقلتيها كيلا تحول بين ناظريها والرَّسم الضَّئيل، وبعد أن حدقت إليه طويلاً كأنه مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قربته من شفتيها وقبّلته بلهفة مراراً متوالية ثمَّ صرخت قائلة: يا أماه. يا أماه. يا أماه! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرَّسم على شفتيها المرتعشتين كأنها تريد أن تبث فيه الحياة بأنفاسها الحارة. . .

إنَّ أعذب ما تحدثه الشِّفاه البشرية هو لفظة «الأمّ»، وأجمل مناداة هي: يا أمي. كلمة صغيرةٌ كبيرة مملوءة بالأمل والحبّ والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرِّقَّة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كلّ شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرَّجاء في اليأس، والقوة في الضُّعف هي ينبوع الحنو والرَّأفة والشَّفقة والغفران، فالّذي يفقد أمُّه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه. . .

كل شيء في الطَّبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة، فالشَّمس هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء إلَّا بعد أن تنومها على نغمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسَّواقي، وهذه الأرض هي أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثمَّ تفطمها. والأشجار والأزهارُ تصيرُ بِدَورها أمَّهات حنونات للأثمار الشَّهيَّة والبذور الحية. وأم كلِّ شيء في

الكيان هي الرُّوح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبة.

وسلمى كرامه لم تكن تعرف أمها لأنها ماتت وهي طفلة، وقد شهقت متأثِّرةً عندما رأت رسمها ونادتها: يا أماه، قسر إرادتها، لأن لفظة الأم تختبىء في قلوبنا مثلما تختبىء النَّواة في قلب الأرض، وتنبثق من بين شفاهنا في ساعات الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصَّافي والممطر.

كانت سلمى تحدق إلى رسم أمِّها ثمَّ تقبِّله بلهفةٍ ثمَّ تلزُّه إلى صدرها الخفوق ثمَّ تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من قواها، حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النَّحيل هوت وسقطت بجانب سرير أبيها، فوضع كلتا يديه على رأسها قائلاً: قد أريتك يا ولدي شبح أمك على صفحة من الورق، فاصغي إليّ لأسمعك أقوالها.

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان، ونظرت إليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت إلى أعين محدقة وآذان واعية.

فقال والدها: كنت طفلة رضيعة عندما فقدت أمك والدها الشَّيخ فحزنت لفقده وبكت بكاء حكيم متجلد، ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبي في هذه

الغرفة وأخذت يدي براحتيها وقالت: قد مات والدي يا فارس وأنت باق لي وهذه هي تعزيتي. إن القلب بعواطفه المتشعِّبة يماثل الأرزة بأغصانها المتفرقة، فإذا ما فقدت شجرة الأرز غصناً قوياً تتألَّم ولكنَّها لا تموت بل تحول قواها الحيوية إلى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضّة[1] مكان الغصن المقطوع. هذا ما قالته والدتك يا سلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك أن تقوليه عندما يأخذ الموت جسدي إلى راحة القبر وروحي إلى ظل اللّه.

فأجابت سلمى متفجعة: فقدت أمِّي والدها فبقيت أنت لها، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محب فاضل أمين، مات والدها فبقي لها طفلةٌ تغمر رأسها الصَّغير بثدييها وتطوق عنقها بذراعيها، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي؟ أنت أبي وأمي ورفيق حداثتي ومهذب شبيبتي، فبمن أستعيض إذا ما ذهبت عني؟.

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحوي وأمسكت بيمينها طرف ثوبي ثمَّ قالت: ليس لي غير هذا الصَّديق يا والدي ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتني، فهل أتعزى به وهو متعذِّب مثلي؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير؟ إن الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما أن الحمامة لا تطير

(١) الغضّة: الطريئة، الليِّنة.

بأجنحة مكسورة. هو رفيق لنفسي ولكنني قد أثقلت عاتقه بأشجاني[١] حتى لويت ظهره وسَمَلْتُ عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة. هو أخٌ أحبَّه ويحبني ولكنَّه مثل جميع الأخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها، ويساعد بالبكاء فيزيد الدَّمع مرارة والقلب احتراقاً.

كنت أسمع سلمى متكلمة وعواطفي تنمو وصدري يضيق حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجَّر حناجر وفوهات، أما الشَّيخ فكان ينظر إليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السِّراج أمام الرِّيح، ثمَّ بسط ذراعيه وقال بهدوء: دعيني أذهب بسلام يا ولدي، لقد لمحت عيناي ما وراء الغيوم، فلن أحولهما نحو هذه الكهوف. دعيني أطير فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا القفص... قد نادتني أمك يا سلمى فلا توقفيني... ها قد طابت الرِّيح وتبدَّد الضَّباب عن وجه البحر فرفعت السَّفينة شراعها وتأهبت للمسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها. دعي جسدي يرقد مع الّذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لأن الفجر قد لاح والحلم قد انتهى... قبّلي روحي بروحك... قبّليني قبلة رجاء وأمل ولا تسكبي قطرة من مرارة الحزن على جسدي لئلا تمتنع الأعشاب والأزهار عن امتصاص عناصره. ولا تذرفي دموع اليأس

(١) أشجاني: أحزاني.

على يدي لأنها تنبت شوكاً على قبري. ولا ترسمي بزفرات الأسى سطراً على جبهتي لأن نسيم السِّحر يمر ويقرأه فلا يحمل غبار عظامي إلى المروج الخضراء... قد أحببتك بالحياة يا ولدي وسوف أحبك بالموت فتظل روحي قريبة منك لتحميك وترعاك.

والتفت الشَّيخ إليّ وقد انطبقت أجفانه قليلاً فلم أعد أرى سوى خطين رماديين مكان عينيه، ثمَّ قال وسكينة الفناء تسترق ألفاظه: أما أنت يا ابني فكن أخاً لسلمى مثلما كان والدك لي. كن قريباً منها في ساعات الشِّدّة، وكن صديقاً لها حتى النِّهاية، ولا تدعها تحزن لأن الحزن على الأموات غلطة من أغلاط الأجيال الغابرة. بل اتلُ على مسمعها أحاديث الفرح وأنشدها أغاني الحياة فتسلو وتتناسى... قل لأبيك أن يذكرني، سَله فيخبرك عن مآتي أيامي عندما كان الشَّباب يحلق بنا إلى الغيوم... قل له إنني أحببته بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي...

وسكت دقيقة وظلت أشباح ألفاظه تدب على جدران الغرفة، ثمَّ عاد فنظر إليّ وإلى سلمى بوقت واحد وقال همساً: لا تدعوا طبيباً ليطيل بمساحيقه ساعات سجني لأن أيام العبودية قد مضت فطلبت روحي حرية الفضاء. ولا تدعوا كاهناً إلى جانب فراشي لأن تعازيمه لا تكفر عن ذنوبي إن كنت خاطئاً، ولا تسرع بي إلى الجنة إن كنت

بارّاً. إن إرادة البشر لا تغيّر مشيئة اللّه كما أن المنجمين لا يحولون مسير النُّجوم. أما بعد موتي فليفعل الأطباء والكهان ما شاؤوا، فاللجة تنادي اللجة أما السَّفينة فتظل سائرة حتى تبلغ الساحل...

عندما انتصف ذلك اللّيل المخيف فتح فارس كرامه عينيه الغارقتين في ظلمة النَّزع، فتحهما لآخر مرة، وحولهما نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه، ثمَّ حاول الكلام فلم يستطع لأن الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً عميقاً من بين شفتيه: ها قد ذهب اللَّيل... وجاء الصَّباح... يا سلمى... يا... يا سلمى...

ثم تكّس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفتاه وأسلم الرُّوح.

ومدت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة كالثلج، فرفعت رأسها ونظرت إليه فرأت وجهه مبرقعاً بنقاب الموت، فجمعت الحياة في جسدها وجفت الدموع في محاجرها، فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه، بل بقيت محدقةً إليه بعينين جامدتين كعيني التِّمثال، ثمَّ تراخت أعضاؤها مثلما تتراخى طيات الثوب البليل، وهبطت حتى لمست جبهتها الأرض، ثمَّ قالت بهدوء: اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة.

مات فارس كرامه وعانقت الأبدية روحه واسترجع

التُّراب جسده، واستولى منصور بك على أمواله وظلت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها المخاوف أمام عينيها.

أما أنا فكنت ضائعاً بين أحلامي وهواجسي، تنتابني الأيام واللَّيالي مثلما تنتاب النُّسور والعقبان لحمان الفريسة. فكم حاولت أن أفقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلني أستأنس بأخيلة الّذين طواهم الدهر، وكم جربت أن أنسى حاضري لأعود بقراءة الأسفار إلى مسارح الأجيال الغابرة، فلم يجدني كل ذلك نفعاً بل كنت كمن يحاول إخماد النَّار بالزيت، لأنني لم أكن أرى من مواكب الأجيال سوى أشباحها السَّوداء، ولا أسمع من أنغام الأمم غير النَّدب والنّواح، فسفر أيوب كان عندي أجمل من مزامير داود، ومراثي أرميا كانت أحب لدي من نشيد سليمان، ونكبة البرامكة أشد وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين، وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً من رباعيات الخيام، ورواية هملت أقرب إلى قلبي من كل ما كتبه الافرنج.

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا الرَّهيبة، وهكذا يصم اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة.